البحترى أمير الصناعة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

قيل إن أبا العلاء المعرى شرح ديوان المتنبى وسماه (معجز أحمد) وشرح ديوان أبى تمام وسماه (ذكرى حبيب) وشرح ديوان البحترى وسماه (عبث الوليد). ولعمرى لو كان شعر البحترى عبثاً ما احتفل له أبو العلاء المعرى ولما سلخ زمناً من عمره فى شرحه، وإلا كان المعرى عابثاً لإضاعة وقته فى شرح العبث . وهذا أمر يذكرنى بكارليل والقرن الثامن عشر ، فقد كان كارليل كلما ذكر القرن الثامن عشر فى أوربا سماه العصر العقيم وعصر طاحونة المنطق ، ويعنى المنطق الفارغ وعصر الإلحاد ؛ ولكنا لو درسنا مؤلفات كارليل لوجدنا أن أكثرها كان فى دراسة القرن الثامن عشر ورجاله ونزعاته الفكرية والسياسية ، ولو كان عقيما ما حفل له ولا اهتم به كل هذا الاهتمام. وكنت أود أن أسأل شيخ المعرة، على ماله عندى من الاحترام والمنزلة، هل شعر الوليد (ويعنى البحترى وهو الوليد بن عبادة) هو العبث أم الجناس والتزام ما لا يلزم هو العبث؟ وإذا تساويا فى العبث فأيهما أحب؟ يخيل إلى أن المعرى إنما أراد أن يداعب البحترى ، ولعله فى صميم قلبه كان يحب عبث الصناعة بدليل ميله إلى الجناس والتزام ما لا يلزم؛ والحب يجلب الداعبة ويغرى بها كما يداعب المحب حبيبه ، وقد يكون ثقل

ذلك ، يعرض فيها على أستاذه أعماله وحساب أسبوعه كما يعرض المرؤوس تقرير الأسبوع على رئيسه الذى هو مسؤول بين يديه ، ويظل السامعون والمتكلم واقفين طوال وقت الاجتماع ، ثم ينفضون خاشعين بعد أن يؤذنهم الخطيب بكلمة الختام »

ويرى المؤلف أن شيان كاى شيك ربما كان أقدر أبناء الصين منذ العهد الذى بنى فيه الحائط قبل المسيح بثلاثة قرون

* * *

ولا يتسع المقام لتلخيص ما كتبه عن غاندى وجوهر لال وغيرهما من أعلام الهند والقارة الآسيوية ، فلعلنا نرجع إلى تلخيص الطريف النافع بعد صدور الكتاب

عباس محمود العقاد

الداعبة دليلاً على شدة الحب الذى لا يجد تنفيساً وترويحاً إلا بالتثاقل بالداعبة . وإذا أضفت إلى ذلك اعتزاز المرى بتفكير كمعر ليس للبحترى مثله كنت قد جمعت بين شِقَّى المداعبة وسببيها. فليس من المحتوم أن يكون لها سبب واحد . على أن المعرى يُغْرَى أحياناً بمعارضة البحترى فى شعره، وهذه مداعبة أخرى فى ثناياها الجد فقد قال البحترى من قصيدة :

وعَيَّرْتنى سجال العُدْم جاهلة والنبع عريان ما فى فرعه ثمر

أى أن الفقر لا يعير به الرجل كما أن الشجر النافع مثل النبع لا يعير بأنه ليس له ثمر . فقال المعرى يعارضه :

وقال (الوليـــد) النبع ليس بمثمر
وأخطأ سِرْبُ الوحش من ثمر النَّبْع

يعنى بالوليد البحترى ويقول : إن قول البحترى إن النبع ليس له ثمر خطأ لأن النبع تصنع منه القِسىُّ وبالقوس يقنص الصائد سرب الوحش ، فكأن سرب الوحش من ثمر النبع الذى ليس له ثمر من فاكهة النبات. فبالله أليست هذه دعابة؟ ثم أليست فكرة المعرى مأخوذة من بيت البحترى ، إذ يعنى أن النبع الذى يمد القانص بالقوس من خشبه لا يعير بأنه ليس له ثمر من فاكهة النبات لأنه يكون سبباً فى اقتناص القنص فله مزايا ؟ فأيهما إذاً العابث ؟ على أنه لو كان شعر البحترى عبثاً لكان أفضل من كثير من عبث الحياة الذى يسمى جداً على سبيل تسمية الضد بالضد . ثم أما كفى المعرى إضاعة وقته بشرح عبث الوليد فى زعمه حتى يضيع جزءاً آخر من وقته بالإشارة إلى معانيه

والبحترى أقرب الشعراء فى صناعته إلى أبى تمام وإن كان أبو تمام أكثر جرأة فى تلك الصناعة وأعظم ابتداعاً. ونجد لأبى تمام معانى يجاريها البحترى ، فأبو تمام يقول :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسود

فيقول البحترى فى المعنى نفسه :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة إذا أنت لم تُدْلَلْ عليها بحاسد

وبيت أبى تمام أسير وأحسن معنى . والملاحظ أن الصناعة هنا هى التى أثقلت بيت البحترى وعاقته عن السير. أما أبو تمام فعرف كيف يجعل الصناعة خادمة للمثل السائر وأبى أن يعوقه بأن يحمله ثقلاً من الألفاظ ، وهذا المعنى هو نصف الحقيقة المشاهدة فى الحياة ،

والنصف الثانى من الحقيقة هو ما عبر عنه الشريف الرضى بقوله :

رُبَّ نعيم زال ريعانه بلسعة من عقرب الحاسد

وهناك فرق قليل فى المعنى بين بيت البحترى وبيت أبى تمام ولكن الموضوع واحد . وقال أبو تمام أيضاً :

لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب

فقال البحترى :

فلو انَّ مشتاقاً تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

وقال أبو تمام أيضاً فى أرجوزة :

إنَّ الربيع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جثمان
مصوراً فى صورة الإنسان لكان بَسَّاماً من الفتيان

فقال البحترى :

أنَّاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد زاد البحترى فى المعنى واختصر كلامه وأحسن سبكه . والحقيقة هى أن البحترى قلما يأخذ معنى إلا زاد فيه وأجاد سبكه أو تصرف فى معناه . أنظر كيف أخذ قول أبى الصخر الهذلى :

تكاد يَدِى تَنْدَى إذا ما لمستها وتنبت فى أطرافها الورق الخُضر

فالهذلى يقول إنه إذا لمس حبيبته أعدته بالحسن ، ولكن أى حسن ؟ حسن النبات . فجعل البحترى العدوى يحسن الإنسان فقال :

أغتدى راضياً وقد بتُّ غضبا ن وأمسى مولى وأصبح عبدا
وبنفسى أفدى على كل حال شادياً لو يُمَسُّ بالحسن أعدى

وقد ظلم ابن الرومى البحترى بقوله فيه :

كل بيت له يُجَوِّدُ معنى فمعناه لابن أوس حبيب

فإننا لو شئنا لأتينا بأبيات يشترك فى معانيها ابن الرومى ومن كان قبله من الشعراء . ويمتاز البحترى بجودة الصنعة ، وكثيراً ما يزيد المعنى ، أنظر إلى قول أبى تمام : (ولا يَحِيفُ رضا منه ولا غضب) وإلى قول البحترى :

يُرْتَجَى للصفح موتوراً ولا يَهَبُ السُّؤْدَدَ فيه للحَنَقْ

فصفح الموتور أعظم من صفح الغاضب ، والشطر الثانى زاد المعنى بهاء . لاشك أن ابن الرومى كان أكثر ابتداعاً ، وكان يجيد الصنعة ولكن للبحترى قطعاً لا يستطيع ابن الرومى محاكاتها فى حلاوة الصنعة ولا سيما فى المدح ، ومدح البحترى كان أسهل متناولاً ، ولعل هذا وحلاوة صنعته مما جعله مسعوداً لدى الممدوحين أكثر من ابن الرومى . والظاهر أن الأمراء ، والوجهاء[1] كانوا يسيئون الظن بمادح ابن الرومى أحياناً لأنه كان هجاء ساخراً ، ومن كان كذلك حُمِلَ بعض مدحه على محمل السخر ، وهذا أمر مشاهد فى الحياة . أما البحترى فإنه يذكرنا بما يحكى عن أحد طهاة باريس الذى أجاد صناعة الطهى حتى أنه طبخ ذات مرة نعلاً سال له لعاب آكليه من جودة صناعة الطهى . وقد بلغت جودة الصنعة فى شعر البحترى مبلغاً جعلها تحاكى العاطفة والوجدان كما نرى فى بعض غزله ، ولكن لو كان كل ما فى شعر البحترى حلاوة فى الصنعة لما حفل به ابن الرومى قدر ما حفل به ؛ وأما إتقان صناعة البحترى محاكاة صدق العاطفة فهى صفة فى كبار الفنانين . فالممثل الكبير إذا مثل الحزن أو الحب لم تفرق بين الحقيقة والمحاكاة ، بل إن المحاكاة تصير حقيقة حتى أن الفنان نفسه قد يخدع بمظهرها فى نفسه كما يخدع المعجبون بفنه ، ومن أجل ذلك قد تختلط حقيقة العاطفة ومحاكاتها فى حياة الفنان كما تختلط الحقيقة والعاطفة فى فنه . أنظر مثلاً إلى قصة البحترى وغزله فى مملوك نسيم الذى كان يبيعه ويقبض ثمنه ثم يصنع فيه غزلاً من أرق الغزل ويعرضه على المشترى الذى اشتراه فيرد المملوك إليه هدية فيربح المملوك ، ويربح ثمنه ، ويصنع غزلاً من غزل محاكاة العاطفة ، ولكن حلاوة الصنعة فيه تغطى على المحاكاة وتختلط الحقيقة والخيال فيه .

والمدح فى شعر البحترى لا يقل كثيراً فى جودته عن المدح فى شعر أبى تمام . وإذا أردت أن تنتخب خلاصة الخلاصة لم تستطع ترك المدح من شعرهما . أما ابن الرومى فإن له أشياء فى موضوعات وأبواب أخرى تلهيك عن مدحه عند اختيار خلاصة الخلاصة من شعره ، وإن كان له فى المدح قدرة كبيرة . ومن بديع شعر البحترى فى المدح قوله :

تلقى إليه المعالى قصد أوجهها كالغيث يقصد أمَّا بالمحاريب
كالعين منهومةً بالحسن تتبعه والأنف تطلب أعلى منتهى الطيب

وقوله :

علا رأيه مرمى العقول فلم تكن لتنصفه فى بعده وارتفاعه
وقارب حتى أطمع الغر نفسه مكاذبة فى خطله واختداعه

فهذه الأقوال ليست صنعة فحسب بل هى أيضاً خيال وفكر .

(١) كما حدث عند ما مدح أبا الصقر إسماعيل بن بلبل الشيبانى الوزير بقصيدته النونية الرائعة

وانظر إلى قوله فى مدح قوم توارثوا خصال الحمد :

خلقٌ منهم تردد فيهم ... ولبعضه عصابة عن عصابه
كالحسام الجراذ يبقى على الده ... ر ويفنى فى كل عصر قرابه

أو قوله :

جهير خطاب يخفض القوم عنده ... معاريض قول كالرياح الرواكد

وهذا تشبيه بديع، وانظر إلى قوله:

مدرك بالظنون ما طلبوه ... بفنون الأخبار فناً ففناً

وقوله :

وكأن الذكاء يبعث فيه ... فى سواد الأمور شعلة نار

وقوله :

صحبوا الزمان الفرط إلا أنه ... هرم الزمان وعزهم لم يهرم

وقوله :

عليم بتصريف الأمور كأنما ... يعانى صروف الدهر من عهد تبّع

وقوله :

تَمِلٌّ إلى نجح الفعال كأنما ... يمسى على وِتر من الموعود

وقوله :

وكم لبست الخفض فى ظله ... عمرى شباب وزمانى ربيع

فمدحه حلو شائق سواء أكان المدى سائراً مألوفاً أم كان جديداً مبتدعاً . أنظر إلى دقة المدح فى قوله :

لم يرتفع عن مراعاة الصغير ولم ... ينزل إلى الطمع المخسوس إسفافا

ولكنه مع ذلك لا يخلو من أشياء فيها فتور الصنعة وتكلفها عند ما تكون الصنعة قاهرة اماطفته الفنية ومنافسة لها بدل أن تكون زميلتها أو خادمتها . وقد روى أنه أحرق أكثر هجائه الذى به فحش وان كان فى ديوانه القليل من هذا النوع[1] وله فى الهجاء أشياء مستحسنة مثل قوله :

تزيد الإهانة فى حاله ... صلاحاً وتُفسِدُهُ التكرمه

وهذا البيت يصف النفس الإنسانية فى بعض حالاتها وهو فى معناه شبيه بقول القائل :

يُصْبِحُ أعداؤه على ثقة ... منه وخِلّانُهُ على وَجَل
تَذَلُّلاً للعدو عن ضعة ... وصولةً بالصديق عن نَقَل

ومن مأثور هجاء البحترى قوله :

وبعضهمُ فى اختباراته ... يُحِبُّ الدناءة حبَّ الوطن

والظاهر أنه لم يجد حبًّا أشد من حب الوطن كى يقارن به حب المهجو للدناءة . ومن المشهور قوله أيضاً :

كل المظالم رُدَّتْ غير مظلمة ... مجرورة فى مواعيد ابن عباس
مَنَّيْتنِى فرحة النجح الذى التمست ... نفسى فلا تمنَّنى فرحة الياس

وأبياته التى يقول فيها :

وبعد عن المعروف حتى كأنما ... ترون به سقم النفوس الصحائح

والأبيات التى يقول فيها (ويعتد العتاب من السباب) وذمه على أى حال لا يقارن بهجاء ابن الرومى الذى بزهم جميعاً فى بابه

والبحترى لا يُعَنِّى نفسه كثيراً بالتفكير فى معضلات الحياة كما يفعل المعرى، ولكن أمراً واحداً يفكر فيه كثيراً وهو تفاوت الناس فى الحظوظ ولا سيما فى قسمة المال حتى أن فى بعض قوله نفحة من الاشتراكية ؛ فهو يقول إن الغنى مفسدة والفقر مفسدة ويود لو تقاربت الحظوظ فى المال، وهو يكرر هذا المعنى فيقول

كان يُحْيِى هالكاً من ظمأ ... بعض ما أوْبق ميتاً من غرق

ويعنى بالظمأ والغرق قلة المال وكثرته ، ثم يكرر هذا المعنى فيقول

تفاوت الأيام فينا فأقرطت ... بظمآن بادٍ لوحُهُ وغريق

وتمنيه فى البيت الأول أن يسعد جميع الناس فى الحظوظ يخالف قول ابن الرومى :

وتُحَالُ أن يَسْعد السعداء الـ ... ـدهرَ إلا بشقوة الأشقياء

(البقية فى العدد القادم) عبد الرحمن شكرى

(١) مثل هجائه على بن الجهم الشاعر

حقائق السيرة الخالدة

فى ثوب القصة الرائع ، يتجلى فى كتاب :

صور إسلامية

للأستاذ عبد الحميد المشهدى

ظهر منه الجزء الثانى . والثمن خمسة قروش مع أجر البريد داخل القطر . وستة قروش خارجه.

يطلب من المكتبات الشهيرة
ومن المؤلف ١٨ شارع الشيخ عبد الله بمصر